تسونامي شعب يضرب الحكام الظالمين

سمير اسطيفو شبلا

عقدت مئات مؤتمرات السلام وحوار الاديان ومنظمات حقوق الانسان العالمية والوطنية على مدى قرون من اجل انتشال حالة البشرية اليائسة/ الخائفة من الحاضر والمستقبل - المرهوبة من مصير مجهول لها ولاجيالها القادمة في معظم دول العالم، وان قرأنا المسرح العالمي نجد هناك قرية صغيرة فيها كافة مستلزمات الراحة تقدم العلم والتكنلوجيا "ان استغلت" بين قوسين طبعا لصالح الانسان ومعاناته سيكون هناك أمن وأمان وسلام داخلي دائم! بحيث لا ننتظر ان نموت فرادى وجماعات لكي يرى البعض القليل منا "الجنة" الموعودة في الحياة الاخرى، ولكن المنطق واللاهوت المعاصر يؤكد ان الملكوت "الجنة" تبدأ من هنا والان، الآن مؤتمرات السلام وحوار الاديان والامم المتحدة ومجلس الامن الدولي والدول الكبرى - تعدد الاقطاب - والقوتان الكبيرتان وبعدها القطب الواحد، لم تكن موفقة بالقدر الذي يريده منها المجتمع الدولي وخاصة الشعوب التي ترزح تحت نير الظلم وانتهاك الحقوق والدكتاتورية المزمنة، ان كانت دكتاتورية دينية او سياسية وحكومية موروثة وخاصة في شرقنا العربي والاثني، وقد دفعت هذه الشعوب الكثير من دماء شبابها وكرامة نسائها من اجل الامان قبل لقمة الخبز واليوم هناك تسونامي شعبي يضرب المنطقة برمتها وتتصاعد وتيرته كلما جرف احد من الرؤساء في طريقه، لانه يعطي الجرأة والقوة والشجاعة اللازمة للتضحية "السلمية" للآخرين الغير بعيدين عن الحدث والذي الغى جغرافية المكان وقرّب الزمان لهم علم الاتصالات والانترنيت، فلا تنفع قرارات منع استخدام الانترنيت او استعمال طائرات لمراقبة من يستعمل "النت" او حجب المواقع! ومن اسباب انفجار الشعب بوجه الظلم والاضطهاد هو استمرار الحرمان وكبت الحريات وزيادة الفقر والبطالة والتفرقة العنصرية وزيادة الهوة بين الغني والفقير وغياب العدالة والمحسوبية والمنسوبية وتكريس المذهبية والطائفية وفرض الفكر الواحد والدين الواحد والثقافة الواحدة وانتهاك حقوق الانسان واستغلالها لمصالح خاصة وشخصية، وتمتد هذه التراكمات الى عشرات بل مئات السنين والشعوب المقهورة تئن تحت نير الظلم الاجتماعي والسياسي والديني/المذهبي، ونعتقد ان الشعوب اعطت اكثر من فرصة تاريخية للحكام العرب ولغير العرب ليس في المدة "الصبورة" التي قضوها تحت المعاناة والفقر والظلم، بل في التفتيش عن مجموعة قيادية تلبي طموحهم بالعمل الفعلي وليس بالشعارات قبل الانتخابات، فلم يجدوها فعلا خلال قرن من الزمان او اكثر، لحين ان جاء علم الاتصالات ليُقرب الزمن ويهيأ مائدة مستديرة للحوار الثقافي المباشر بين جماهير الشعب وجها لوجه ومع حكامها من جهة وانتقال تجارب الشعوب الاخرى بسرعة البرق الى الاخرين، اضافة الى وجوب وجود قوى تؤمن بالتوجه الديمقراطي تقود هذه الجماهير الغاضبة! بحيث تحول غضبها الى انفراج اجتماعي وسياسي عن طريق التغيير السلمي لمفاهيم وافكار ورثناها قبل قرون والتي كرست حالة الفقر المدقع التي ترزح تحته نسبة كبيرة من شرائح المجتمع بحيث وصلت نسبته في بعض البلدان اكثر من ٤٢%، وتحت خط الفقر وصل في بعض الاقطار الى ١٢%، وفقراء القمامة الى ٤%، وكانت آخر الاحصائيات تشير الى وجود ٧٠مليون فقير في الوطن العربي!!! وهذا يفسر لنا مدى حجم الهوة او المسافة بين طبقة الاغنياء "الطبقات الحاكمة وحاشيتها" وبين الشعب! الآن نحن امام ثورات شعبية (بالجملة) لان الرياح الشديدة التي انطلقت من المغرب العربي - تونس - عن طريق صاحب عربة خضار! والتي لم تكن وليدة صدفة طبعا، بل وليدة مرحلة متكاملة من الاستبداد واللاعدالة وعدم المساواة! وجاءت وثائق "ويكيليكس" لتشعل اول شرارة "التسونامي" بشكل مدروس وكان مفاجئة للحكام بحيث لم يتمكنوا من لملمة حاجياتهم وفقدوا بوصلة الاتجاه الذي سوف يسلكونه والرئيس بن علي خير مثال، وهذه كانت تجربة غنية كبرى للحكام الاخرين لكي يفكروا كيف يمكن ان يحفظوا ماء وجوههم من الرياح القادمة من داخل شعوبهم ليشكروا شعب تونس وعامل عربة الخضار وبن علي الذي لم يستقبله احد سوى ملك السعودية! حتى اقرباءه قد القي القبض عليهم في كندا! وقبل يومين كانوا موضع ترحاب كبير ولكن الدولارات وخاصة الحرام منها لا تنقذ اصحابها من "الرزالة" يا اصحاب الملايين الحرام!!! ومن جانب آخر لينظروا ويكيليكس ووثائقه لانه كان احد اسباب التعجيل في هبوب العاصفة السوداء بالنسبة لهم وحواشيهم، ولكنها بيضاء بالنسبة لقطاعات الشعوب المختلفة بشرط ان تكون سلمية غاضبة! وحذار ان تستغل من قبل قوى التطرف الدينية خاصة وتسرق منها بريقها على ان ترجعنا الى نقطة البداية عن طريق خلق فوضى يسمونها "الفوضى الخلاقة" بحيث يقمعون الشعب للقيام بها مع استغلال عاطفة ثورة الغضب! وان المال العام هو ملك الشعب، واليوم النموذج المصري امامنا "ان كانت هناك حوار بين الحزب الحاكم والمعارضة حول قانون الانتخابات واجراء بعض الاصلاحات لكان الحزب الحاكم في مصر يمر بهذه المرحلة الحرجة؟؟ خسائر البورصة المصرية ليومين ٧٠مليار جنيه مصري!! ان كانت هذه الاموال قد استغلت لصالح التربية والتعليم والصحة والخدمات، لكانت الرياح تتجه نحو مصر لم كانت تغير اتجاهها؟؟؟ هناك فرصة تاريخية امام الحكام العرب خاصة لمراجعة انفسهم وطريقة حكمهم قبل وصول الرياح الى حدودهم والا فسوف يتحملون لسان التاريخ الطويل والشعب مهيأ للانفجار في اية لحظة بعد شرارة بسيطة من قبل قوى الخير والتقدم والتوجه الديمقراطي الحقيقي.

أيبقى مخاض الجياع لقمة خبز مضرجة بدماء حمراء. . . . وإلا. . . ؟

يوسف زرا

لا زال بعض قادة الدول التي تغريهم هيبة الكراسي المطعمة بالأحجار الكريمة وذات المقاعد الواسعة والوثيرة، والمصابين بشهية وداء العظمة ينفردون بالسلطة المطلقة ويحكمون شعوبهم بالحديد والنار، وهم قابعون تحت قباب القصور الفخمة شيدتها سواعد أجيال من العمال المأجورين والمهانين. ثم لا زال هؤلاء الحكام لا يفقهون من حركة المجتمع الانساني وفرضية قوانينه المتقاطعة مع الاحداث اليومية وفق منطوق المادية التاريخية المسيرة لامور الاقتصادية والاجتماعية والفكرية وذات صفة ديناميكية ومتجددة.

لا بل وبكل عنجهية هؤلاء القادة الغلاة، يطوون سجل التاريخ، وكأنه وسادة تارة يفرشونها تحت اقدامهم ويمشون عليها متبخترين غير مبالين بمآسي شعوبهم وحرمانهم من ابسط حقوقهم وحريتهم في الحياة الكريمة. وتارة تهمل فوق الرفوف عمدا فها هو التاريخ يروي لنا النتائج الوخيمة لواقع الفقر المدقع لكثير من شعوب الارض. ولا لهيجانها حينما خوت بطونهم حتى من فتات خبز يابس وبدون ملح. وما ثورة العبيد في شمال ايطاليا في اوائل القرن الاخير قبل الميلاد، وبقيادة بطلها الاسطورة سبارتاكوس. ورغم انتهائها المؤلم وبدون تحقيق أي هدف لها واعدام قائدها والكثير من رفاقه عام ٧٢ق.م . على يد قادة الامبراطورية الرومانية القساة. ولكن بموت سبارتاكوس ورفاقه. فان التاريخ سجل الحدث كمعجزة لأولئك العبيد وقادتهم. ووصمة عار في جبين الامبراطورية المذكورة وقياصرتها الطغاة. رغم مرور قرون عديدة على ركود المجتمع البشري .....

ولكن لن ولم تخمد حركة وثورة الشعوب المغلوبة والمقهورة ظلما وعدوانا. فقد قامت للقرامطة وفي العهد العباسي "القرن الثامن" ثورة جبارة وذات اتجاهات سياسية ودينية، عصفت بالمجتمع الاسلامي ايام الخليفة المعتضد. وكان اندلاعها في العراق ومن منبتي الكوفة والبصرة واتسعت الى غالبية الدولة العباسية واشهر قادتها - حمدان بن الاشعث - الملقب بقرمط. ورافقتها ثورة مماثلة في اهدافها في تحرير العبيد من الظلم والبؤس، ومن قساوة الحالة المعاشية والاحتقان الفكري، وهي ثورة "الزنج" بقيادة علي بن محمد وشملت جنوب العراق والكويت. ودامت قرابة العقد ونصف العقد من السنين. وعدت هذه الثورة، كحركة اجتماعية ذات جذور فكرية واقتصادية وتحررية بعيدة التطبيق ومغرية الى مفهوم الاشتراكية في انتزاع ملكية الأسياد وتوزيعها على العبيد وتعتبر هذه الثورة في نظري بمثابة سبق زمني لتحقيق العدالة الاجتماعية في المنطقة. لافتقارها الى مفهوم العدالة الاجتماعية نظريا وعلميا. ولابد ان نعرج الى الثورات المعاصرة لحركة المجتمع البشري والتي قلبت وجه التاريخ لما كان سائدا، وجاءت بمفاهيم اقتصادية واجتماعية وفكرية جديدة وجذرية. ومنها ثورة الشعب الباريسي في ١٤/تموز/١٧٨٩ حين هاجمت جموع الكتل البشرية الجائعة قصر فرساي وطوقت سجن باستيل الرهيب وحطمت ابوابه واسقطت اخر ملوك فرنسا - لويس السادس عشر - وزوجته ماري انطوانيت وارسلتهم الى المقصلة.

ويمكن اعتبار هذه الثورة بمفاهيمها الجذرية امتدادا لثورة الزنج التي ورد ذكرها سابقا. الا انها ايضا الت الى الانهيار لتصارع قادتها على السلطة فيما بينهم وافتقارها ايضا الى نظرية ثورية وقيادة موحدة تعمل بموجبها وسميت الى هذا اليوم بـ"كومونة باريس" "اي مشاعية باريس" لم يركن التيار الثوري التجددي للمجتمع الانساني رغم مضي اكثر من قرن وربع القرن على كومونة باريس". فكانت ثورة العمال الروس التي انفجرت في ٧ تشرين الاول عام ١٩١٧ كصفحة جديدة في تاريخ التغيير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري وعلى نطاق البشرية بصورة عامة والمجتمع الروسي والاوربي بصورة خاصة. ولاول مرة بداء الانسان الروسي مرحلة بناء الاشتراكية وفق نظرية اقتصادية وسياسية وفكرية علمية ناضجة، وتلتها الثورة الصينية التي بدأت اثر وفاة القائد الصيني الديمقراطي صن يات صن في عام ١٩٠٩. وانحراف خلفه شان كاي شيك عن الخط المرسوم من قبل القائد المذكور. فلاحت بوادر قيام ثورة جبارة في الصين منذ عام ١٩٢٧، وبرغم الاخفاقات والنكسات الكثيرة التي اصابتها عبر مسيرتها الطويلة والشاقة والمسيرة الكبرى لجيش التحرير الصيني. حتى انتصرت الثورة عام ١٩٤٩ وانهزم شان كاي شيك الى جزيرة فرموزة.

وقامت جمهورية الصين الشعبية وترسخت دعائمها المادية والفكرية وتطور مجتمعها تطورا اقتصاديا وفق اسس علمية حديثة ويشهد المجتمع الدولي على ذلك . فليس من السهل ترك الشعوب تئن من الجوع ولا مكبلة حريتها وافكارها كما هو قائم في غالبية دول العالم الثالث بصورة عامة ودول الشرق الأوسطية والعربية في مقدمتها بصورة خاصة. تحكمها قيادات بعيدة كل البعد عن فهم ميزة العصر واهمية احترام قيمة الانسان وحقوقه المشروعة في العيش الكريم وباختيار نظام حكمه بكل نزاهة وحرية ومصداقية. حقا انها قيادات غالبيتها جمهورية بالتسمية ووراثية بالواقع

كملوك بلا تيجان" تعاقبت على دست الحكم سنينا وعقودا واستبدت به دون أن تعي ضرورة قيام انظمة دستورية تكون قياداتها منتخبة بشكل ديمقراطي ونزيه وشفاف. والا لما الت الحالة المأساوية التي تعيشها شعوبها ومن الواقع المزري والفقر المدقع لغالبية الفئة الكادحة لها بسبب البطالة المستشرية فيها. الى جانب حكر السلطة وتفشي الرشوة والفساد الاداري والمالي والمحسوبية في غالبية دوائر الدولة. والشعب العراقي لا زال يئن من هول الفوضى الاقتصادية والامنية منذ اربعة عقود واكثر بسبب الحكم الدكتاتوري السابق والمحتل الاجنبي والى اليوم .

ومخاض الجياع لا يمكن وفي اي بقعة من الارض كانت فان بؤرة ثورة عارمة اذا انفجرت فلا حدود لها، وليس ما حدث في تونس بالذات من الانتفاضة السلمية لشعبها والتي بدأت في العاصمة وامتد نارها الى سائر المدن والبلدات. وحاول الحكام اخمادها بالحديد والنار الا ان لهيبها حاصرهم في قصورهم حتى فر رئيس الجمهورية وحاشيته وسقطت حكومته. الا ان مجرى الاحداث يبدو ان هناك محاولة الالتفاف على هذه الثورة التي روت دماء شعبها العشرات من الشهداء والمئات من الجرحى ارض تونس الخضراء. وذلك بأبقاء غالبية اعضاء الحكومة السابقة وبخطوة دستورية مشبوهة ومشوهة بغية ان لا تأتي حكومة شعبية من صلب الثوار وتحيل جميع رموز العهد السابق الى القضاء العادل، وبناء عهد جديد تسوده الديمقراطية الحقة. وها هي الثورة التونسية لم تتوقف حتى امتد سعيرها الى جيرانها من دول المنطقة كالجزائر وموريتانيا، وقد تتوسع رقعتها ما دام الغبن والحكم الدكتاتوري الظالم يحكم الكثير من شعوب افريقيا ودول الشرق الاوسط والعربية منها بالذات . فهي بالحق ثورة البؤساء والمحرومين حتى من لقمة العيش البسيط انها بمثابة صرخة مدوية بوجه كل طاغ ومستبد ومزيف لارادة الشعب . . . . الا يتعظ المعنيون حتى يفيض تحت اقدامهم غضب شعوبهم المقهورة، ويوقفون هدر دماء ابنائهم ومن اي مكونات بشرية كانت ؟ فلن يبقى مخاض جياع لقمة خبز مضرجة بدماء حمراء . . . . والا.

واحات

annajar44@yahoo.com

عدنان الحسني

متطلبات الشكل والشيء

ترى هل ان الحياة بكل تفاصيلها قد اختلفت؟ ام ان متطلبات الشكل والشيء اصبحت ضمن عصورها وما ستؤول اليه امور ان كانت تحت عنوان الظاهر من الفعل ام الخفي من العمل ستكون نتائجه منطبقة على الاساس نفسه.

اسئلة تحتمل شتى النتائج اذ ان ديمومة العمل نفسه يحتاج الى الاسباب والغايات والا لم تكن نتائجه منسجمة مع مسيرة الحدث نفسه... ومهما يكن من مآل الى النتائج او حال من اسباب أن الصفات التي تميز العمل او الفعل في المحتوى الانساني لابد وان تكون منسجمة مع الفعل ذاك او العمل هذا، والا كان التصرف تصرفا غير ذي قيمة نوعية فالكثير من التصرفات الفردية او الجماعية تفتقر الى عنوان الجمال فتكون الى الزوال وان تأثر بها البعض او أثرت هي نفسها في البعض، فالاخلاق ليست بالضرورة ان تكون متوازنة او مكتسبة وان كانت في بعض الاحيان متأثرة بالتوارث في احيان اخرى بالاكتساب لذلك عمد الكثير من العلم والادب الى اظهار المحتوى الجمالي على حساب الظاهر الشكلي لتكون النتائج المؤثرة نتائج ذات قيمة وابداع يختص به الحدث شكلا ومضمونا فما كان من الكثير من المختصين الا ان يصوروا تلك الصفات بنفس خط سير تلك النتائج... ومما لا شك فيه أن التحلي بالصفات التي تتسم بجمال الشكل والشيء اي الظاهر والمضمون هو السمة الاساسية لعلو الاخلاق ضمن صفاتها وحيثياتها... وما من مجتمع ناضج يرقى الى المنشود من الامل نحو التطور والسير في ركب التمدن والعلوم الموصلة الى تلك النتائج الا وتكون الاساسيات لديه في البدء نحو الانطلاق اساسيات اعتمدها التصرف وثقافة الاستيعاب والايمان بالله سبحانه... اذ ان التحسب صفة رقابية تصقل الفعل والعمل على اساس الارادة للوصول الى الافضل.

متغيّرات النظام العربي

بعد ثلاثين سنة من بؤس التاريخ

أ.د. سيار الجميل

مقدمة : ٢٠١١ تفتتح مرحلة جديدة في التاريخ

كنت أتوقع أن تبدأ متغيرات التاريخ في منطقتنا مع نهايات العام ٢٠٠٩ ، ولكن مضى العام ٢٠١٠ بكل ما حفل به من أحداث تاريخية صعبة رافقها رحيل عشرات الرموز العربية، وقد اعتبرتها تمهيدا للعام ٢٠١١ الذي افتتح ايامه ومنذ الشهر الأول بسلسلة أحداث درامية قوية جدا ، بدأت في تونس ثم انتقلت الى مصر التي تشهد اليوم اشتعال الأحداث فيها ، وهي في قلب المنطقة. لقد قلت في مقال سابق لي نشر في إيلاف بتاريخ ٦ كانون الثاني ٢٠١١ ، والمعنون بـ " غياب عنقود عربي : ٢٠١٠ : نهاية رحيل وولادة جيل " : إذ كتبت قائلا في موضوع أسميته تساؤلات في مغزى سلاسل التكوين التاريخي : " الا تثير سنة ٢٠١٠ التساؤلات حقا ؟ ألا يتساءل المرء ، لماذا غاب العدد الكبير من الشخصيات السياسية والأدبية والعلمية والفنية عام ٢٠١٠ ؟ لماذا بلغ الرحيل ذروته في ٢٠١٠ ، بعد أن تصاعد منذ العام ٢٠٠٨ و ٢٠٠٩ ؟ ..... ويستدعي رحيلها جملة من التساؤلات المهمة عن نهاية رحيل وولادة جيل .. سألني احد الأصدقاء المثقفين والمتابعين وهو الأستاذ أكرم سليم رئيس تحرير صحيفة أخبار الكندية قبل عام مضى ، قال : كنت قد حدثتنا عن ظاهرة ستحدث عام ٢٠٠٩ ، ولكن العام مضى من دون حدوثها.. أجبته لننتظر اكتمال العام ٢٠١٠ ، وها أنا ذا اعلمه بما سأل ... إنها فترة تاريخية ترحل فيها عناقيد من الناس لتنمو عناقيد أخرى في سلسلة تكوين تاريخي يتخضرم بين قرنين من الزمن ". ولقد انتهيت من المقال بتساؤل يقول : " وكم يا ترى سيحدث من متغيرات على أيدي الجيل الجديد (من ولادات نهاية السبعينيات ومطلع ثمانينيات القرن الماضي) ؟ وما سيتلوها من متغيرات على أيدي الجيل القادم الذي نشهد ولادته الآن ؟ .. كيف ستكون حياتهم في ظل المعضلات الكبرى التي تجتاح العالم .. ". فرضيتنا اليوم عن متغيرات النظام العربي الذي بقي على ما هو عليه منذ قرابة ثلاثين سنة.. دعوني أتساءل معكم :

لماذا لم ينتبه النظام العربي على نفسه؟

لم ينتبه النظام العربي الحالي حتى الآن إلى حجم المتغيرات التي أصابت الجيل الجديد في حياتنا العربية ، ناهيكم عن تضاعف أعداد السكان في اغلب البيئات العربية مقارنة بما كانت عليه الأوضاع قبل ثلاثين سنة ! ولم ينتبه النظام العربي الحالي إلى كونه يسير بلا أية مؤسسات قوية لصنع التاريخ ، فلم تزل القرارات لا تصنع إلا في مكاتب الرؤساء والملوك والزعماء أنفسهم ! ولم ينتبه أولئك الزعماء العرب إلى أنفسهم ، إنهم مغشون باحتكار السلطة حتى نهاياتهم ، بل ويسعون إلى توريثها إلى أبنائهم ! لم ينتبه النظام العربي برمته حتى الآن إلى قوة النداءات التي ناشدته ، والمطالبات التي طالبته منذ مطلع القرن الواحد والعشرين ، ولم يفتح أي حوار مع اصحابها لمعرفة ما الذي يريدونه منه ! بل ولم يلتفت النظام العربي إلى نفسه حتى ولو لمرة واحدة ليعالج ما يحتاجونه من خطط وبرامج ، إن كان يفكر بذلك أصلا ! لم ينتبه أبدا إلى قوة متغيرات العالم خلال الثلاثين سنة الأخيرة أبدا .. ولم يشعر بتأثير تلك المتغيرات بدءا بثورة الميديا ولا ثورة المعلومات ولا ثورة الاتصالات .. ولم يستوعب بعد تأثير ذلك على الجيل الجديد الذي ان سمح له بأي حراك ، فانه سيقدم البدائل العملية بعيدا عن تخبط الإيديولوجيات القديمة ! لم ينتبه النظام العربي الحالي الى ضعفه وخوره وهزاله الذي يعيش عليه ، ولم يزل يتغنى بأمجاد وهمية يحتفل بها ، وما هي إلا ثمة تجارب فاشلة في التاريخ!

ومثلما لم ينتبه النظام العربي الذي سبقه والذي عاش ثلاثين سنة بعد الحرب العالمية الثانية ، إلى أفول النزعة القومية وسقوط الأحزاب الشوفينية والنازية ، فكان المد القومي عند العرب طاغيا في النظام العربي السابق ، فان النظام الحالي الذي انبثق اثر انطلاق الوفاق الدولي اثر الحرب الباردة وانبثاق الدولة الدينية في إيران عام ١٩٧٩ ، لم ينتبه إلى ما هو عليه اليوم إزاء متغيرات العالم منذ سقوط الاتحاد السوفييتي واضمحلال المنظومة الاشتراكية.. ولم يزل يتغنى بالطائفية ! لم ينتبه النظام العربي الحالي إلى شيخوخته التي يعيشها إزاء موجات مليونية من تدفق نزعات الجيل الجديد الذي يتنامى عدده بشكل هائل ، ولكنه يعاني من جملة تحديات واسعة لا يمكن التكهن بما ستحدثه في الثلاثين سنة القادمة وفي ظل نظام عربي آخر سيولد الآن ، ولا يعرف مدى قابليته على التغيير ! لم ينتبه النظام العربي الحالي إلى جملة من كوارث ومآس سببتها عوامل سياسية خارجية وداخلية .. ولم يسع إلى تفكيك تلك " العوامل " بصراحة متناهية من اجل إعادة تركيب البناء على ضوء جديد ! لم ينتبه هذا النظام إلى جملة من المطالبات المشروعة من قبل النخب الفاعلة والقوى التجديدية والتي نادت بالإصلاح .. أو تحديث كل المرافق ! لم ينتبه أيضا إلى شعاراته ومنشئيات إعلامياته وأكاذيبه التي صاغها في عدة مبادرات من اجل الإصلاح .. وكأن أن أخرجها مسرحيا في عدد من مؤتمرات القمة من دون أي تفعيل او متابعة!

لقد كان النظام العربي الحالي كالنظام الذي سبقه غارق بأكاذيبه على الناس وفبركاته على العباد وفي أجهزة إعلامه الهادرة التي كانت مهمتها ولم تزل خداع الجماهير في كل مكان ! لم ينتبه أبدا إلى سقوط بعض الأنظمة السياسية في المنطقة العربية .. ولم يتعلم من تجارب بعضه بعضا ، ومثلما خدع الناس ، فالناس خدعوه وأوهموه أيضا بأن من سقط كان بفعل غزو خارجي وقد عميت العيون عن رؤية الحقائق أو الإبصار في ليل معتم ! لم ينتبه إلى خدعته للناس وخداعهم له باسم المؤامرات الخارجية والغزوات القادمة من وراء البحار .. وكأنه يجمع ملائكة لا تشوبهم أية شائبة!

لم ينتبه إلى المصالح القومية العليا عندما قتل الجار بجاره ، وآذى الأخ أخيه .. بل وراح البعض يرتزق على أبواب هذه الدولة أو تلك بعيدا عن سمعة النظام العربي وهيبته التي أطيح بها في الحضيض ! لم يفهم النظام العربي الأوضاع الداخلية السيئة التي تعيشها المجتمعات العربية " باستثناء مجتمعات محددة وصغيرة ثرية في منطقة الخليج "، إذ تتفشى البطالة ، ويعم الفقر ، وينتشر الظلام ، وتتفاقم المشكلات ، وتتزايد الصعوبات ، وتتوالد الإخفاقات في كل مكان من الأرض العربية ! ولم ينتبه النظام العربي إلى تلك العوامل الداخلية التي فتت في عضد الناس ، وجعلتهم يعانون من عقم السياسات ، وسوء الإدارات ، وانتشار الفساد ، وازدياد الأزمات للغذاء ، والسكن ، والنقل ، والاتصالات ، والخدمات .. الخ لم ينتبه النظام العربي إلى حجم التحديات الإقليمية وزحف الشعارات وشراء الذمم مراهنا على توافقيته مرة وعلى مركزيته مرات .. من دون أن يدرك تفككه وضعفه وهشاشته إزاء سياسات إقليمية مركزية وثابتة وواضحة الأهداف ! لم ينتبه النظام العربي إلى أن الإصلاح المنشود لا يقتصر على مؤسسة جامعة الدول العربية التي شاخت ولم تعد تقوى على الحياة ، بل وساهمت منذ تكوينها على أن تعمل ضد النظام الداخلي الذي تؤمن به ! فلم تفعل شيئا للنظام العربي سواء ذلك الذي عاش المد القومي اثر الحرب العالمية الثانية ، أم هذا الذي عاش المد الديني اثر الحرب العالمية الباردة ! إن النظام العربي الحالي يدرك كم سببت الجامعة العربية له من مشكلات ، وما كرسته من حالات التفسخ وما ترافقت به على جراحات الناس! لم ينتبه النظام العربي إلى أن النمو السياسي ليس مجرد شعار سياسي أو ترقيع رسمي للبؤس الاجتماعي العربي الذي ازداد بشكل مذهل في السنوات الأخيرة .. بل راح يغرد كل بلد عربي على هواه ! لم ينتبه النظام العربي إلى أن حالة الانقسام العربي لم تعد نفعا بزوال الحرب الباردة ، بل تفاقم امرها جراء عوامل لا تعد ولا تحصى .. وغدت الحياة العربية لا تطاق تناقضاتها في ظل حكومات دكتاتورية او مخابراتية او بوليسية .. واغلبها غارق في التفاهة والفساد والجهالة ..

المواقف في دواخلنا العربية والاقليمية والدولية

ان دواخلنا العربية تنخرها الاختراقات من هنا وهناك وقد تفاقمت التناقضات في مجتمعاتنا التي اصبحت في خدمة الانظمة السياسية والسلطوية .. وتلوث المناخ السياسي الذي يعكس مواقف ومخاوف متباينة من التحديات الخارجية ، وان من المضحك جدا أن تطلق على أية تحركات شعبية تسمية " اتجاهات الرأي العام " ، فالرأي العام شيء والتحرك الشعبي شيء آخر .. ولا نستطيع القول بأن كلا من الاثنين مرتهن من قبل الأنظمة الحاكمة وإراداتها السياسية ، فكل ما يحدث على الساحة السياسية العربية لا يمثل بطبيعة الحال الرأي العام العربي الذي هو في عداد المفتقدين ، وان التحرك الشعبي لا يمكن أن يصدق أبدا إلا إذا جاء عفويا من دون أي إعداد مسبق وترتيبات أمنية .. اذ انه يبدو مزيفا ، وهو ينطلق بموافقات حكومية ويرخص من قبل وزارات الداخلية.

لقد كانت هناك ثمة تحركات شعبية واسعة انطلقت عام ١٩٩١ في بعض العواصم العربية عندما ضرب العراق في حرب الخليج الثانية ، ولكن ما تأثيرها ؟ وماذا تحقق من جرائها ؟ فإذا كان الحال كذلك قبل قرابة عشرين سنة وفي ظل وجود القطبين الدوليين ، فما بالنا اليوم وقد انفردت الإرادة الأمريكية الواحدة بالعالم واتباعها سياسة العصا الواحدة ، وفي ظل استراتيجية خارقة لأغلب المناطق الحيوية في العالم ! لا أقول أنها بلغت مداها في التأثير على منظمات المجتمع المدني والقطاعات الشعبية ، بل لأن مداها في الاختراق والنفوذ قد وصل إلى الذروة بحيث لم يعد الانصياع هو الذي يميز الدول العربية والاقليمية حسب ، بل وصل إلى بلدان العالم كلها : زعماء وحكومات ومؤسسات وجيوش وعناصر مخابرات ..

فهل هي المجتمعات المدنية والقطاعات الشعبية أقوى من حكومات كبرى في هذا العالم المهتز على اشد حالات الاهتزاز ؟ اعتقد بأنني لست مخطئا إن قلت بأن مثل الحالة لم يمر بها العالم من قبل على امتداد التاريخ بغياب الاستقطاب الثنائي في التاريخ والانفراد قوة عظمى للهيمنة على العالم كله! كما اعتقد بأن الموقف العربي الراهن يتغير شيئا فشيئا ليزيل نظاما عربيا حكم لثلاثين سنة .. لصالح انبثاق نظام عربي جديد ، لا نستطيع التكهن بمدى قوته واتساع مدياته ، وسيبقى لثلاثين سنة قادمة .. نجهل اليوم طبيعة كينونته وطبيعة علاقاته مع محيطه والعالم.

وعليه، فان الصمت العربي الذي اطبق على الحياة العربية لأكثر من ثلاثين سنة ، سواء كان حكوميا أم شعبيا ، وكان قد غدا حالة مكوفلة ولا يمكن تصنيفها لا باليأس من الاحتجاجات ولا بالتسليم ، الا بالأمر الواقع ولا اتساقا بين الطرفين : الحكومي والشعبي ، ذلك لأن المنطقة العربية بأجمعها كانت قد صمتت منذ زمن طويل ، وتعودت على الصمت الرهيب لأن صوتها لا تستخدمه إلا للتصفيقات وترديد الشعارات البهلوانية: "يعيش ويسقط" و "بالروح بالدم " ! أو أنها تستخدم شارعها السياسي بمنتهى القرف سواء في تشييع الجنازات والبكاء عليها أو سحل الجثث والتشفي فيها ! لقد جمع الشارع السياسي العربي نقائض لا حصر أو عد لها نتيجة ما لاقاه من قمع وما صادفه من اضطهاد على أيدي الأجهزة البوليسية.. وربما كانت الجاليات العربية والمسلمة في بعض العواصم الأوروبية والأميركية تشكل فيها ثقلا معتبرا ، هي التي استفادت من مناخ الحريات والديمقراطيات في لندن وبرلين وباريس ونيويورك وغيرها للتعبير عن المزيد من الاحتجاجات .. وأقول إن ما شهدته الشوارع الأوروبية والأمريكية من احتجاجات ضد السياسات الأمريكية لم تكن إلا مسيا للملايين المحتجين ضد العولمة وضد البطالة وضد الأوضاع الاقتصادية القميئة وليس حبا لا بالعرب ولا بنظامهم العربي الحاكم ولا بمنظومة العرب أو المسلمين!

وأخيرا : ماذا يمكننا قوله ؟

إننا نجد بأن الأصوات تعلو والانتقادات تتزايد ليس ضد غياب الديمقراطية والحريات عند العرب ، بل ضد النظام العربي الحالي الذي يعتبره البعض واحدا من أسباب خراب بلداننا وتدهور حياتنا .. إن هناك اليوم رأيا عاما أراه يتبلور يعلن عن مطالبات بالحريات وحقوق الإنسان بعيدا عن كل القيم الإنسانية التي ساهم في تغييبها النظام العربي الحالي ، وبدأت سنة ٢٠١١ بحالات ثورية تعلن الرفض الشعبي العربي العارم ، وهي تدرك توقيت ذلك الهياج وعمر ذلك الرفض ثم خفوتهما وسكوتهما نهائيا بعد تسليم العرب بالأمر الواقع ، وهذا ما أثبتته أحداث القرن العشرين .. وعليه ، فان الخصم عادة ما يزيد من وتيرة الأحداث باتجاه المزيد من نيل المصالح مستفيدا من وضع ليس مزهلا فقط ، بل ومهلهلا ومتناقضا ومنقسما على نفسه بأقصى درجات الانقسام !

إننا نتوهم كثيرا من خلال عدم معرفتنا بما ستؤول إليه الأمور ، وصناعة أي حدث تاريخي قد نصفق له كونه يمثل حالة إنقاذ .. من دون أن ندري ما سيلحق بنا من تداعيات وأضرار وأذى وآثار تدميرية .. فالعرب لا يستبقون الأمور ولا يحاولون درء أية ضربات أو اتقاء أية حروب نحن في غنى عنها مع تجديدهم نظامهم العربي تلقائيا ! فهل ساهم العرب دولا ومجتمعات في إيجاد أساليب حياة عربية جديدة ؟ وهل ساهمت جامعة الدول العربية في إيجاد أية حلول لأي مشاكل ومعضلات عربية ؟ ان الحلول بأيدينا ان استطعنا ان نخلق النقيض النقيض ، فلا الصمت سيمنحنا الأمان ، ولا الصراخ سيجدي نفعا !

نشر في ايلاف، ١ شباط ٢٠١١ .

الانظمة امام خيارين.. الاصلاح او القمع

طاهر العدوان

يقتضي منّا ان نُسلّم، بعد ثلاثاء الغضب في مصر، بان الثورة، او الانتفاضة في تونس تنشر تأثيراتها في الشارع العربي من المحيط الى الخليج، ولا اذكر منذ رحيل جمال عبدالناصر ان ثورة حرّكت وجدان الانسان العربي كثورة تونس، فهناك تيارات عارمة ومحتدمة تحتشد الآن تحت السطح في المجتمعات العربية تفصح عن نفسها في مظاهرات واحتجاجات ومطالبات يومية وهي تتجه نحو اهداف وشعارات تبدو وكأن الشارع العربي كله يلتقي عليها ويلتف حولها، مثل التغيير والاصلاح ومحاربة الفساد ووقف الاستبداد واطلاق الحريات العامة. بما يُذكّرنا بأيام مطالب الوحدة والحرية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

بات واضحاً، بشكل مفاجئ ومثل شروق الشمس، بان "الليل بدأ يرحل" عن اجزاء واسعة من العالم العربي، لقد تهاوى الاعتقاد الشائع بان الشعوب استسلمت وارتمت في احضان الانظمة التي انتهجت على مدى عقود من الحكم الفردي سياسة احتقار مواطنيها وتجاهل مطالب الاصلاح ونشر الديمقراطية واصلاح الحريات، اسوة بشعوب الارض، التي بعضها، او كثير منها لم يصل التعليم والوعي فيها المستويات التي وصلت اليها الشعوب العربية.

ومن غير المعقول، بعد الحدث التونسي المجلجل الاعتقاد بان "الانظمة الامنية" واساليب قمع الحريات وكبت انفاس الشعوب يمكن ان تحيا وتستمر في القرن الحادي والعشرين، فالمستبد المطلق الذي يظن ان شعبه طوع بنانه يرتمي تحت اقدامه واقدام بطانته الفاسدة بات ظاهرة غريبة وشاذة في عصر ما بعد الحداثة، والعولمة، وثورة المعلومات وتقدم مطالب حقوق الانسان في المجتمع الدولي على اية مطالب ونظريات اخرى، مثل مهازل قوانين الطوارئ، وشعار "لا صوت يعلو على صوت المعركة" ونظريات القائد الملهم، ومصادرة الحريات بدعوى التصدي لمؤامرات الامبريالية والصهيونية.

من المؤلم المحزن،ان انظمة الاستبداد في العالم العربي فعلت بشعوبها ما لا يمكن للعدو ان يفعل بها. لقد اهانت روح العزة والكرامة عند الانسان العربي، وفي ظل الشهوة المريضة للسلطة المطلقة تعاملت مع شعوبها بروح عنصرية تمييزية، عندما زعمت بان العرب ليسوا ناضجين بعد لممارسة الحرية والديمقراطية والمشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية.

لا شيء ابدا يكافئ الحرية عند الانسان... العرب بَشرٌ مثل باقي الخلق واذا كان من حقهم المطالبة بالامن والغذاء، فان ما هو حق مقدس المطالبة بالحرية وممارستها قولا وفعلا. لقد اخترعت الانظمة قوانين الاستعباد حتى اصبحت الحرية والخبز محتكرين لحلقة محدودة حاكمة في حين ان الاغلبية مطحونة ببؤس العيش وفقدان الاحساس بالمواطنة والكرامة.

امام الانظمة خياران: الاصلاح او القمع. فاذا اختير الاصلاح فان اول من يقطف ثمار الحرية السياسية هم الحكام انفسهم، فالحرية كما عرّفها رئيس برازيلي سابق "بانها التي تسمح لرئيس الجمهورية عند انتهاء فترته الرئاسية بان يلملم حقيبته ويعود الى منزله يمارس حياته في وطنه بأمان" الحرية اذا وصفة العصر وطريق الخلاص للنظم الديمقراطية وشعوبها، اما القمع فاقرب ما ينطبق عليه المثل القائل: "مثلما زرعت تحصد".